الفصل التاسع

التمـام والختـام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة – الآيات ٣].

(١)

السنة: العاشرة من الهجرة.

وكأنمـا كان نـزول سـورة التوبة، هو الفيصل عنـد من بقوا على شـركهم أو كفرهم، بين حيرتهم وترددهم بين: الرغب فى والرغب عن دين الله الخاتم، فلقد تزايد وصول وفود العرب والروم والفرس، مـا بـين راغب فى الدخول فى دين الله، وراغب فى دفع الجزيـة إقرارا بقوة وجود أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كما بقى البعض فى أرض اليمن من اليهود لا يبدون رأيا، ومنهم بنو الحارث بن كعب، فبعث إليهم رسـول الله ﷺ خالـد بن الوليد، فى أربعمائة مقاتل، وطلب منـه أن يمكث بينهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسـلام، ولا يحاربهم، فلما وصل إليهم جند الله، أرسـل خالد بالمسـلمين فى كل ناحية، يدعون الناس إلى دين الله، قائلين:

– يا أيها الناس، أسلموا تسلموا.

فأقبلوا عليهم مسـلمين، فأخذ خالد يعلمهم كتاب الله، وسـنة نبيه، ثم كتب إلى رسـول الله ﷺ، يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبى رسـول الله ﷺ، من خالد بن الوليد: السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو.

أمـا بعد، يا رسـول الله صلـى الله عليك، بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعـب، وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام؛ فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم.

وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرتنى رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانا، قالوا: يا بنى الحارس، أسلموا تسلموا.

فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبى ﷺ، حتى يكتب إلى رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

فكتب إليه رسول الله ﷺ، يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى رسول الله، إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإن كتابك جاءنى مع رسلك بخبر أن بنى الحارث، قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه؛ فبشرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

(٢)

اعتاد جبريل عليه السلام منذ فرض الصيام، أن يدارس رسول الله ﷺ القرآن أثناء اعتكافه فى العشر الأواخر من الشهر، ولكنه عجل فى قدومه، فاعتكف رسول الله ﷺ مرتين، مرة فى العشر الأواسط، ومرة فى العشر الأواخر.

وحين انتهت أيام الاعتكاف، خرج نبى الله ﷺ إلى صحابته، فأكثر من الجلوس إليهم، يفقههم فى أمور دينهم، ويفيض عليهم مما علمه الله، ويوصيهم بالتمسك بشرع الله، ويبشر الصابرين منهم بجنات النعيم، ويحذرهم من مغريات الدنيا فكل ما فيها إلى زوال، وأما ما عند الله فى الآخرة فهو خير وأبقى.

ولم يكن ما يقوله الحبيب محمد ﷺ بغريب عليهم، فهو إمامهم، وهو لهم القدوة فى القول والعمل.

فلما كان شهر شوال، أرسل على بن أبى طالب ﷺ إلى اليمن، فيما يزيد على الثلاثمائة من جند الله، ليدعو القبائل التى لم تدخل الإسلام بعد، وأوصاه ألا يقاتلهم، وأن يبدأ بدعوتهم إلى قول: لا إله إلا الله، فإن قالوا: نعم، فأدعهم إلى إخراج صدقة أموالهم ليردوها على فقرائهم، ثم قال ﷺ لعلى:

– والله لأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا، خير مما طلعت به الشمس، أو غربت.

ودخلت أقوام كثيرة فى الإسلام مختارين، وقاتلت «عليًّا» قلة منهم، فنصره الله عليهم، وغنم منهم غنما عظيما، قسمه بين الجند، وأبقى الخمس لله، ورفض أن يتصرف فى شىء منه، حتى يرى رسول الله ﷺ رأيه فيه، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ.

(٣)

ولما آن موعد الحج، أعلن رسول الله ﷺ عزمه على الخروج إلى مكة أداء لفرض من فروض الله،

ولركن الإسلام الخاتم، وسمع من حول المدينة بعزم الحبيب ﷺ على الحج، فتقافز الشوق لبيت الله يهز القلوب هزا، وتوافد الناس أفواجا، وقد زاد من شوقهم رغبتهم رفقة الحبيب محمد ﷺ لأطول مدة، ليسعدوا بنوره، ويأتموا به، ويقتدوا بهداه.

وتزينت المدينة وازدادت نورا، والمسلمون يفدون عليها من كل حدب بالآلاف، يسوقون الهدى، ويلبون، ويكبرون، ويحمدون الله على ما هداهم، وعلى ما رزقهم، وجميعهم قاصدون إلى حيث الإمام والقائد والحبيب محمد ﷺ.

تحرك الموكب المهيب، خارجا من المدينة، قاصدا بيت الله الحرام، وكلما مر بمكان، انضم إليه أهله، حتى وصل عدد الحجيج على مشارف مكة، ما يزيد على المائة وأربعة عشر ألفا، وتجسد فيهم التصوير الربانى فى سورة الحج، كل التجسد: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فالناظر من فوق جبل، يرى أمامه رجالا من كل القبائل، قد ضمرت أبدانهم جهادا فى سبيل الله، فبدوا عماليق تتطاول جباههم لتلامس ذرى الجبال الشامخات، يسعون فى إصرار وعزم، يرددون تلبية نبيهم ﷺ فى عقيدة، مستجيبين لدعوة الداعى العظيم:

- لبيك اللهم لبيك.
- لبيك لا شريك لك لبيك.
- إن الحمد والنعمة لك والملك.
- لا شريك لك.

وترتج الجبال رجا من صدق الترديد وقوته، بينما تتصاعد سحابات الغبار إلى عنان السماء تحمل التلبية، وتعبر عن مكابدة المخلصين سعيا لإرضاء الله، فتضيف على الموكب مهابة ورهبة، تزلزل قلوب اللائذين بوساوس الشياطين..

فهؤلاء والله هم أهل الحق.

ولما وصل رد رسول الله ﷺ لعلى، وفيه أعلمه بخروجه للحج، وطلب منه أن يلحق به، فولى «على» إمارة الجيش لأبى رافع، وأسرع ليلحق بالحبيب فى مكة.

٤

وصلت جموع الحجيج إلى مشارف مكة، تسبقها أصوات التكبير والتهليل، وكان من انتوى الحج ومن لم ينتو من أهلها، قد خرجوا من مساكنهم ينتظرون حجاج بيت الله، أملين فى رؤية نور الحبيب محمد ﷺ، ولقاء الأقارب من المهاجرين.

ولما أهلت طلعة البيت الحرام، رفع الحبيب محمد ﷺ يديه إلى السماء،ودعا ربه، قائلا:

– اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرا.

ثم نزل الحبيب ﷺ عن راحلته، وتوضأ من ماء زمزم، وتوجه إلى الكعبة فكبر ثلاثا واستلم الحجر الأسود، وابتدأ طواف القدوم: أسرع فى ثلاث طوافات، ومشى فى الأربع المتبقية، ولما انتهى من طوافه، اتجه إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين بقراءة سورتى: الفاتحة والكافرون فى الركعة الأولى، وقرأ فى الركعة الثانية سورتى: الفاتحة والإخلاص؛ وحين انتهى من صلاته، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

واستلم الحبيب محمد ﷺ الحجر الأسود، ثم اتجه إلى زمزم فشرب من مائها، وحث الخطى إلى الصفا، فلما استوى فوقه، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

ثم قال الحبيب ﷺ:

– نبدأ بما بدأ الله تعالى به.

ثم اتجه ببدنه ناظرا إلى البيت، وكبر، وقال:

– لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله، وحده، أنجز وعده، وصدق وعده، وهزم الأحزاب وحده.

ودعا الله تعالى بما شاء، ثم نزل، ورمل ومشى، حتى إذا رقى المروة نظر إلى البيت، وقال مثلما قال وهو على الصفا، ودعا ربه، ونزل فرمل ومشى؛ فلما أتمها سبعة أشواط، قال:

– يا أيها الناس، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أسق الهدى، ولجعلتها عمرة، فمن لم يكن معه هدى فليحل، وليجعلها عمرة.

فقال سراقة بن مالك:

– ألعامنا هذا يا رسول الله؟.

فقال الحبيب محمد ﷺ:

– للأبد، للأبد، للأبد، دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة.

فحل الناس إحرامهم، وحلقوا وقصروا، وخلعوا ملابس الإحرام ولبسوا المخيط، إلا الحبيب ﷺ لأنه صحب معه هديه.

مكث ﷺ بمكة ثلاثة أيام هى: الثلاثاء والأربعاء والخميس، وكان يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين، وقد رفض أن ينزل بدار من دورها، ونزل فى خيمة ضربت له بجوار المسجد.

وقد وصل على بن أبى طالب عائدا من اليمن، ورسول الله ﷺ بمكة، ثم لحق به أصحابه، فخرج يستقبلهم ليدخل بهم على الحبيب ﷺ، فوجد أكثرهم قد لبسوا من الخمس الذى جعل لله،

فغضب «على» غضبا شديدا، وطلب منهم أن يخلعوا ما لبسوا نهبا، فشكوه إلى الحبيب ﷺ، فسكت ولم يعقب.

فلما كان يوم الخميس، قال الحبيب محمد ﷺ للناس:

– من استطاع أن يصلى الظهر بمنى، فليفعل.

وركب الحبيب ﷺ إلى منى.

٥

اليوم: الجمعة، يوم التروية، الموافق الثامن من الشهر.

الشهر: ذى الحجة.

السنة: العاشرة من الهجرة.

أحرم من تحللوا بعمرة، وأهلوا للحج، وركب الحبيب محمد ﷺ، وخرج بالحجيج إلى منى، وهناك صلى بها الجمعة، وخطب فى الناس، فبين لهم مناسك الحج.

وقد صلى الحبيب ﷺ بمنى صلوات: العصر والمغرب والعشاء والصبح، ومكث حتى طلعت الشمس، ثم سار إلى عرفة، فنزل بخيمة ضربت له بنمرة.

ولما أذن للصلاة، صلى الحبيب محمد ﷺ بالناس صلاة الظهر، ثم أقام فصلى صلاة العصر، ولم يصل بينهما شيئا، حتى إذا زاغت الشمس أمر بناقته،

وركبها إلى وادى عرفة، وقد تحلق حوله الحجاج، ما بين ماش وراكب، فلما وصل بطن الوادى، حمد الله وأثنى عليه وخطب فى الناس، فنهاهم عن الصوم فى يومهم هذا، وقال:

– إن دعائى ودعاء من كان قبلى من الأنبياء: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير.

ثم ركب ناقته واتجه إلى الموقف بعرفة، فاستقبل القبلة وأخذ يدعو الله تعالى، بما فتح عليه به: فقرأ آية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران – الآية ١٨].

ثم أعقبها بقوله:

– وأنا على ذلك من الشاهدين.. يا رب.

وكان من دعاء الحبيب ﷺ فى هذا الموقف العظيم:

– اللهم اجعل فى بصرى نورا، وفى سمعى نورا، وفى قلبى نورا، اللهم اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج فى الليل، وشر ما يلج فى النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر.

اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا

البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الذليل، أدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن ربي رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين.

ولقد دعا الحبيب محمد ﷺ لأمته بالرحمة والمغفرة، فأكثر الدعاء، فأوحى له الله: إني قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا، وأما ذنوبهم فيما بيني وبينهم فقد غفرتها.

وتنزل على نبي الله ﷺ، وهو في هذا الموقف، قول الله تعالى في الآية الثالثة من سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

حتى إذا ما غربت الشمس حرك الحبيب ﷺ ناقته، وهو يقول للناس:

- أيها الناس، السكينة.. السكينة.

ولما وصل المزدلفة صلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد، وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، وجمع حصوات العقبة، ولما قرأ ما تنزل عليه، بكى عمر بن الخطاب، فسأله الحبيب محمد ﷺ:

- ما يبكيك؟.

قال عمر رضى الله عنه:

- أبكاني يا رسول الله، أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص.

قال نبي الله ﷺ:

- صدقت.

وتوافد عليه أصحابه، فلما خرجوا من عنده، اضطجع حتى طلع نور الفجر، فصلى بهم الفجر بأذان وإقامة، ومكث حتى تبين له الصبح، فركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة: ودعا لله تعالى، وحمده، وكبره، وهلله، ووحده.

وقبل أن تطلع الشمس، سلك إلى الجمرة الكبرى فرماها بسبع حصوات، مكبرا مع رمي كل حصاة، ثم انصرف إلى أرض النحر، وقال ﷺ: كل أرض مكة منحر، فذبح الأضاحي، وساعده على رضى الله عنه؛ ثم طلب تقسيمها وتوزيعها، وأخذ قطعة لحم فطبخت، وأكل من لحمها وشرب من مرقها، وتلا قول الله تعالى من الآية الثامنة والعشرين من سورة الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

ودعى الحلاق، فحلق له شعره، وركب إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهل له:

- أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، فإني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا، رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، أيها الناس، أي شهر هذا؟.

فسكت أغلب الناس، وقال بعضهم:

– الله ورسوله ﷺ أعلم.

وسكت الحبيب ﷺ قليلا، ثم قال:

– هذا شهر حرام، وأى يوم هذا؟.

فسكت الناس، فقال الحبيب محمد ﷺ:

– هذا يوم حرام، وأى بلد هذا ؟.

فسكتوا، فقال:

– هذا بلد حرام.

ثم أستطرد الحبيب ﷺ، فقال:

– إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟.

قال الناس:

– اللهم نعم.

قال الحبيب محمد ﷺ:

– اللهم فاشهد.

ثم قال:

– إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، وإن ربا عمى العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيع بن الحارث ابن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد، فأيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، وألا يعصين فى معروف، فإن عصين، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله،

واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت.
وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله، وسنة نبيه.
اسمعوا قولى واعقلوه، إن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين جميعا إخوة،
فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم قد بلغت.
قال المسلمون:
- اللهم نعم.
فقال الحبيب محمد ﷺ:
- اللهم فاشهد.

٦

عاد رسول الله ﷺ إلى منى، فأقام بها أيامها، يرمى الجمرات، ثم نزل إلى مكة، فطاف طواف الوداع، وأخذ طريقه راجعا مع الحجيج إلى المدينة.
وفى الطريق تحدث إلى الناس بما يبين لهم قدر أهله عنده، قاصدا محو ما علق فى أذهان بعض من صحبوا عليا فى رحلته إلى اليمن، من مظنة أنه يقسو فى معاملته لهم، فقال:
- أيها الناس لا تشكو عليا، فوالله إنه لأخشن فى سبيل الله من أن يشكى.
ثم أخذ بيد على رضى الله عنه وقال:
- من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.
وفى المدينة، وقف الحبيب محمد ﷺ على المنبر، وخطب فى الناس قائلا:
- أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى قط، فاعرفوا ذلك له، إنى عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض، فاعرفوا ذلك لهم.
أيها الناس، احفظونى فى أصحابى وأصهارى وأحبابى، لا يطلبكم الله بمظلمة أحد منهم.
أيها الناس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا:
جلس صحابة رسول الله ﷺ فى المسجد بعد صلاة المغرب فقالوا:
- لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء.
واستراحوا لما قالوا، فجلسوا، حتى خرج إليهم الحبيب ﷺ فقال:
- ما زلتم ها هنا؟.
قالوا:
- نعم.
قال ﷺ:
- أحسنتم.

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال:

– النجوم أمنة إلى السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى، فإذا ذهب أصحابى، أتى أمتى ما يوعدون.

وقال رسول الله ﷺ:

– سألت ربى عز وجل، عن اختلاف أصحابى من بعدى، فأوحى إلى: يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء، بعضها أقوى من بعض، ولكل نور، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم، فهو عندى على هدى.

– أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم.

وقال رسول الله ﷺ فى قدر صحابته رضوان الله عليهم:

– لا تسبوا أصحابى، فو الذى نفسى بيده، لو أن أحدا أنفق مثل " أحد " ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه.

– ما من أحد يموت من أصحابى بأرض، إلا بعث لهم نورا وقائدا يوم القيامة.

– خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن، ويحلفون ولا يستحلفون، تسبق أحدهم يمينه ويمينه شهادته.

– أرحم أمتى بأمتى: أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله تعالى: عمر، وأشدهم حياء: عثمان، وأقضاهم: على، وأعلمهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل، وافرضهم: زيد بن ثابت، وأقرأهم: أبى بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة: أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من: أبى ذر، أشبه بعيسى عليه السلام فى ورعه.

– إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى «وأشار إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما» واهتدوا بهدى عمار بن ياسر، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه.

– رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرمضاء امرأة أبى طلحة رضى الله عنهما، وسمعت خشخشة، فقلت: من هذا ؟. قالوا: بلال. ورأيت قصرا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا ؟. قالوا: لعمر بن الخطاب. فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك، فوليت مدبرا.

فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله.

قال له نفر من أصحابه رضى الله عنهم:

– يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟.

قال رسول الله ﷺ:

– نعم، أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام.

– إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسك الماء، فنفع الله تعالى بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به.

– إنما مثلى ومثلكم، كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار، تقع فيها، فجعل ينزعهن، ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها.

سأل جماعة من الصحابة، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن وأرضاهن، عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما اخبروا بما كان يفعل، قالوا:

– أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟.

وعزموا أمرهم، فقال أحدهم:

– أما أنا فأصلى الليل أبدا.

وقال الآخر:

– وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال الثالث:

– وأنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبدا.

ولما علم رسول الله ﷺ بما قالوا، جاء إليهم، فقال:

– أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟.

قالوا:

– نعم.

قال رسول الله ﷺ:

– أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى.

سألت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت:

– كان «قرآنًا» يمشى على الأرض.

قال أنس بن مالك:

– خدمت رسول الله ﷺ فلم يقل لى عن شىء لم أفعله، لم لم تفعله، ولا عن شىء تركته، لم تركته.

سئل رسول الله ﷺ:

– مـا بالـك تقـوم الليل والنهار عابـدا ذاكرا لله مسـتغفرا، وقد غفـر الله لك ما تقـدم من ذنبك وما تأخر؟!.

قال رسول الله ﷺ:

– أفلا أكون عبدا شكورا.

قال رسول الله ﷺ:

– إنى لأستغفر ربى فى اليوم أكثر من مائة مرة.

(٧)

اليوم: الأربعاء، الثانى من الشهر.

الشهر: صفر.

السنة: الحادية عشرة من الهجرة.

كان رسول الله ﷺ، ببيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، مريضا، فنهض من نومه فى جوف الليل، ولما هم بالخروج، سألته قلقة عليه:

– أين يا رسول الله، بأبى وأمى؟.

فأخبرها بأنه أمر بأن يسـتغفر لأهل البقيع، وخرج ومعه مولاه أبو مويهبة وسـارا حتى أتيا البقيع، حيث مدافن المسـلمين، فوقف أبو مويهبة على مبعدة تأدبا، وتقدم الحبيب محمد ﷺ، ووقف عليهم وأخذ يسـتغفر الله لهم، وأطال فى الوقوف وأكثر من الاسـتغفار، ثم قال مخاطبا من سبق إلى الموت من صحابته رضى الله عنهم وأرضاهم:

– هنيئـا لكم ما أصبحتم فيه، أقبلـت الفتن كقطـع الليل المظلم، يتبع بعضهـا بعضا، يتبع آخرها أولها، والآخرة منها شر من الأولى.

وحين انتهى، استدار وسار إلى حيث وقف أبو مويهبة، وقال له ﷺ:

– يـا أبـا مويهبة، إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد فيهـا، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى، والجنة.

قال أبو مويهبة:

– بأبى وأمى يا رسول الله، فخذ خزائن الدنيا والخلد، ثم الجنة.

قال الحبيب محمد ﷺ:

– يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى، والجنة.

□□□

المكان: بيت عائشة رضى الله عنها.

الوقت: ضحى.

اليـوم: الاثنين، الثانى عشر من الشهر.

الشهر: صفر.

السنة: الحادية عشرة من الهجرة.

قال الحبيب محمد ﷺ:

- اللهم أعنى على كرب الموت.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٤٤].

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [سورة البقرة - الآية ١٥٦].

صدق الله العظيم

المصادر

القرآن العظيم	الاستشهاد بالآيات
صحيح البخارى	الاستشهاد بالحديث
تفسير ابن كثير	ابن كثير
تفسير القرطبى	القرطبى
صفوة التفاسير	للصابونى
تفسير الشيخ الشعراوى	للشعراوى
أسباب ورود الحديث	للسيوطى
الأذكار المنتخبة	للنووى
الإسراء والمعراج	للإمام ابن عباس رضى الله عنه
جامع العلوم والحكم	لابى الفرج
جوامع السيرة النبوية	لابن حزم
دلائل النبوة	للبيهقى
فتاوى رسول الله ﷺ	ابن القيم الجوزية
فقه السنة	محمد الغزالى
فقه السيرة	د. محمد سعيد البوطى
سيرة الرسول ﷺ	لابن هشام
البداية والنهاية	لابن كثير
تاريخ الطبرى	للطبرى
سبل الهدى والرشاد	لمحمد بن يوسف الشامى
الدرر	لابن عبد البر